استلهام القصة العربية الروائية فى الرواية العبرية المعاصرة

أ.د. عمرو عبد العلي علام (*)

اتخذ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي المستمر منذ عقود، أبعاداً جديدة في الرواية العبرية المعاصرة، ففي الوقت الذي عالج فيه بعض الأدباء الإسرائيليين مجموعة من القضايا الشائكة حول الصراع بين كلا الطرفين، تطل علينا رواية **יונים בטרפלגר** (حمائم في ميدان ترافلجر) التي صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥م للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل[١]"، لكي تكشف لنا عن رؤية أدبية جديدة مستلهمة من القصة العربية، وتتمركز حول روافد جديدة من المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية، وتحاول من خلال التخييل الروائى توجيه دفة أحداث القصة العربية الحقيقية إلى رؤى إسرائيلية جديدة تناقض الواقع المعيش.

لقد أثارت هذه الرواية ردود فعل قوية على الساحة الأدبية في إسرائيل، وأحدثت سجالاً واسعاً بين النقاد، فيما يتعلق بصلتها برواية الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني [٢]" (عائد إلى حيفا) الصادرة فى عام ١٩٦٩م، والتي استمد الأديب الإسرائيلى سامى ميخائيل أحداثها فى روايته العبرية، وهو الأمر الذي جعل ميخائيل يدافع عن نفسه قائلاً: "لقد انتهيت من كتابة هذه الرواية الجديدة، وهى رواية تواصل ما انتهت إليه رواية كنفاني، ذلك الأديب الفلسطيني الذي اغتيل في السبعينيات ببيروت على أيدينا"[٣]. وقد ذكر ميخائيل أنه كتب هذه الرواية من أجل الأمومة فقط؛ فقال: "تعبر روايتي هذه عن وجهة نظر الأم تجاه الصراع، فالصراع عند كنفاني صراع رجولي لا يعرف الجانب الأمومي، فهناك رجلان يدخلان في مواجهة، في

* – أستاذ اللغة العبرية وآدابها – وكيل كلية الآداب– جامعة المنوفية.

حين أن الأمهات يتصرفن بنوع من البلاهة، ولا توجد في روايته ولو بقية من الحب لدى الابن، في حين أن روايتي هذه تعبر عن الأمومة، والأم في الرواية هي التي تقوم بالاتصال بالابن وترعاه وينفطر قلبها لحظة لقائه بأبيه. لقد أراد أبوه أن يمحيه من حياته، بينما هي لم تتنازل عنه، لقد انحزت في الرواية إلى الأم أكثر من أي شخصية أخرى"[٤].

هذا البحث يحاول الكشف –عبر المنهج المقارن– عن دوافع استدعاء الأديب الإسرائيلى لأحداث القصة الروائية العربية فى عمله الأدبى، وكيف وظف أحداث القصة العربية ونهايتها وبنيتها الفنية فى روايته العبرية؟ وإلى أى مدى نجح هذا الأديب فى تحقيق هدفه من هذا الاستدعاء؟ وهل اختلفت كل رواية عن الأخرى فى تصوير حدة الصراع ودرجته؟ وكيف عكست الروايتان نقطة التحول الفاصلة فى فى العلاقات العربية اليهودية فى أعقاب نكبة ١٩٤٨م؟ وكيف صاغ الأديبان رؤيتهما لحل هذا الصراع على الأرض؟

قصة الروايتين (عرض مختصر):

تحكى رواية (عائد إلى حيفا) قصة سعيد وزوجه صفية؛ إنهما لم يستطعا الوصول إلى بيتهما بحيفا إبان أحداث النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨م تحت وطأة أصوات الرصاص والقصف والتهجير، الذى تعرض له الفلسطينيون آنذاك. لقد تذكر سعيد ابنه "خلدون" فجأة، الذى أتم فى ذلك اليوم بالذات شهره الخامس، وأخذ يسبح ضد سيل هادر ينحدر من جبل شديد العلو؛ سيل جموع البشر المنهمرة بفعل التفجير والهدم والوحشية التى ارتكبها الصهاينة اليهود ضد الفلسطينيين، ولكنه لم يستطع الوصول إلى ابنه "خلدون". وبعد عشرين عاماً فى المهجر، يعود سعيد ومعه زوجته صفية إلى حيفا، ويقومان بزيارة بيتهما القديم هناك، ذلك البيت الذى استحلته الوكالة اليهودية، وأسكنت فيه أسرة يهودية ناجية من أحداث النازى ضد اليهود، ولم تكتف بذلك بل تبنت تلك الأسرة "خلدون" ابن الأسرة العربية، ليتهود على أيديهم، ويطلقون عليه اسماً يهودياً هو "دوف"، حتى صار جندياً فى الجيش الإسرائيلى. وفى لقاء مثير وصادم، يلتقى "دوف" وهو يلبس بزته العسكرية الإسرائيلية بأسرته العربية، وتقدمه الأم اليهودية "ميريام" إلى والديه الحقيقيين "سعيد" و"صفية"، ولكنه يأبى

الاعتراف بهما ويقول إنه لا يعرف أماً غير "ميريام" وأباً غير "ايفرات كوشين" الذى قتل فى سيناء قبل إحدى عشر عاماً؛ فيثور الأب، وقبل أن يمضى ومعه زوجته فى نهاية الرواية، يقول له: "ستكون معركتك الأولى مع فدائى اسمه خالد، وخالد هو ابنى، أرجو أن تلاحظ إننى لم أقل إنه أخوك"(٥).

بينما تحكى رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) العبرية عن بطل يعانى طوال الوقت، إنه "زئيف ابشتاين" ذلك الفتى الإسرائيلي الذي عاش كيهودي في أحضان المجتمع الإسرائيلي الغربى سنوات طوال، وفجأة يتضح أنه عربي فلسطيني تركته أسرته العربية قسراً وهو طفل صغير تحت وطأة أحداث حرب ١٩٤٨، لتأخذه أسرة يهودية وتتبناه حتى يصير رجلاً ناضجاً لديه زوجة إسرائيلية وطفل صغير. وبعد ما يقرب من عشرين عاماً، يلتقي هذا البطل بأسرته العربية الحقيقية، وهو يرتدى بزته العسكرية الإسرائيلية. ويحدث هذا اللقاء نقطة تحول عظيمة في حياة هذا البطل، حيث ظل طوال حياته في رحلة بحث طويلة عن هويته الحقيقية. ويرتبط "زئيف" البطل بأمه الحقيقية "نبيلة"، وتصير بينهما علاقة وثيقة وقوية، ولكنه في نفس الوقت؛ لم يتخل عن أمه اليهودية "ريفاه"، التي ربته كيهودي وتركت له حرية الخيار في تحديد هويته، تماماً مثلما فعلت أمه الحقيقية "نبيلة". وتقف زوجته الإسرائيلية "عانات" موقفاً متشدداً من هويته العربية، وهو نفس الموقف الذي تبنته أخته الفلسطينية "سناء" من هويته الإسرائيلية. أما أخوه الفلسطيني "كريم" فقد اتفق تماماً مع موقف أمه بالنسبة لأخيه اليهودي. وفى نهاية مأساوية، يلقى هذا البطل حتفه هو وأخوه الفلسطيني – وكل منهما يدافع عن الآخر– على أيدي مجموعة من الشباب الفلسطينيين الثائرين ضد إحدى الغارات الإسرائيلية التي استهدفت مدنهم، ظناً منهم بأنه إسرائيلي.

ويمكننا أن نلاحظ هنا أن دلالات الأسماء التي اختارها ميخائيل للأبطال، في هذه الرواية، قد تشير إلى معاني عديدة نستطيع من خلالها أن نستشف مقصد الكاتب من اختيار هذه الأسماء بعينها، فهي ترمز إلى واقع الصراع الذي يعيشه الطرفان، فاختياره مسمى **זאב** "زئيف" للبطل قد يعنى أن البطل تعامل مع الواقع الذي ساقه القدر إليه بعيني الذئب التي لا

تنام إحداهن، وكأنه وقع في فخ الصراع الذي لا ينتهي ويتربص به، فهو خائف من مصيره، لاسيما وهو يعيش بهويتين تتصارع كل واحدة منهن مع الأخرى. كما كان اختياره مسمى "نبيلة" للأم العربية يعنى أن هذه الأم تخلت عن التطرف في الصراع واختارت النبل، نبل الإنسانية، الذي يحتم على الإنسان أن يرتقى بالبشر وينأى بهم عن المخاطر أي كانت، فاختارت نبيلة أن تحافظ على ابنها حتى ولو كان يهودياً فذهبت إليه واحتضنته، لا سيما وهو ضحية من ضحايا الصراع الذي صنعه الآباء بأنفسهم، كما حاول ميخائيل أن يوضح.

أما اختيار مسمى **ריבה** "ريفاه" للأم اليهودية، وهو من الفعل العبري **רב** بمعنى (خاصم – اختصم مع)، يعنى أن هذه الأم اليهودية في حالة خصومة مع الأم العربية التي ستأخذ منه ابنها بالتبني، خاصة وهى عاقر لم تلد من قبل، فقد ساق القدر إليها "بدر" أو "بدير" الذي تحول إلى "زئيف"، وربما يعنى هذا الاسم أنه البدر الذي ينشده الجميع حتى يسطع ويغير من أوجه الصراع الذي طال أمده.

وفى حقيقة الأمر، لم يكن هدف ميخائيل من هذه الرواية هو رصد لواقع الصراع وأثاره فحسب، فلم يعنيه القضايا الشائكة الممتدة عبر عقود عديدة منذ بدء الصراع، بقدر ما هي محاولة للتحذير من تداعيات هذا الصراع على المستويين النفسي والاجتماعي لكلا الطرفين، حيث يقول أحد النقاد الإسرائيليين: "تحمل هذه الرواية الكثير من الرؤى المتعددة، فالقصة الإسرائيلية، وكذلك الفلسطينية هما قصة واحدة يعيش فيها شعبان بهوية واحدة؛ هي الألم واليتم فحسب... إن زئيف البطل هو نموذج، سواء أكان شخصية عربية أم يهودية، يتطلب منا استيعابه ليبقى السؤال: إلى أي مدى تتشابه دماء البشر؟ لاسيما وقد جاءت شخصية البطل لتمثل خيطاً رفيعاً بين شعبين؛ ولكنه خيط صامت ومؤلم يعرض في النهاية التطلع الخطر لتوحيد أو دمج السمات لكلا الشعبين، وهو تطلع يشكل في الواقع طمساً للهويتين معاً"(٦).

كما يمكننا ملاحظة؛ أن نهاية (عائد إلى حيفا) لكنفانى جاءت مختلفة عن **יונים בטרפלגר** (حمائم فى ميدان ترافجر) لميخائيل، ولكنهما مشتركتان فى قضيتين مهمتين، وهما الهوية والوطن؛ فالهوية مشطورة فى الرواية العبرية، بينما هى واحدة لا تقبل القسمة عند

كنفانى، وكذلك الوطن المغتصب، فهو لدى ميخائيل؛ وطن لكلا الشعبين وإن كان أحدهما مغتصباً للأرض، بينما هو وطن كامل لا يمكن التنازل عنه ولا إعادته إلا بالحرب لدى كنفانى.

ويقول الناقد الإسرائيلي يورام ملتسر في معرض تناوله لرواية ميخائيل العبرية التى انطلقت أحداثها من القصة الروائية العربية نحو تيمات مغايرة للواقع والحقيقة: "يمكننا قراءة هذه الرواية من زاويتين: الأولى، على أنها قصة إنسانية معقدة، ومؤلمة، وغامضة؛ ومليئة بالشكوك. والثانية، على أنها بحث تناظري في واقع الصراع بين شعبين... لقد نجح ميخائيل في السير على حبل رفيع، بين ما هو معقول في عين القارئ وبين الواقع المزعج، دون أن يقطع الحبل أو يقع من عليه "[٧].

ويمكننا من خلال ما سبق، أن نعرض لأبرز القضايا التى جاءت فى الروايتين العبرية والعربية، من خلال المحاور الآتية:

أولاً: الانعكاس الحقيقي لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

حاول ميخائيل في روايته المستلهمة من رواية (عائد إلى حيفا) العربية أن يرصد الواقع الحقيقي للصراع وتداعياته على كلا الطرفين، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لطرفي الصراع؛ ليعطى معنى جديداً للثكل والألم والضحايا والحروب المتواصلة دون جدوى. ويمكننا، أحياناً، ملاحظة أن هذه الرواية بلا ظالم أو مظلوم، فهي مرآة للإسرائيليين، كما يقول النقاد في إسرائيل، يرون فيها كيف تكون الأحاسيس الفلسطينية متساوية تماماً مع الأحاسيس الإسرائيلية؛ عندما يحل الغضب والانتقام المتبادل محل الحوار والمصالحة؛ لاسيما وقد امتلأت صفحات الروايتين العربية والعبرية بدماء الإنسانية من كلا الطرفين، في رصد حقيقي لتداعيات الصراع الذى بدت تداعياته، كما صورها كل من ميخائيل وكنفانى في المظاهر التالية:

(١) **الثكل:**

استهل ميخائيل صفحات روايته بالتعبير عن صدمة المجتمع الفلسطيني من فقد الأبناء والأزواج، فيطالعنا القاص بحصد لأرواح الرجال الفلسطينيين من قبل الأجهزة الأمنية في إسرائيل: "اغتال عملاء إسرائيليون، منذ سنوات، زوج نبيلة، أبا سناء وكريم. كما أنهت

رصاصات يهودية طائشة حياة زوج سناء وهو جالس في إحدى المقاهي"[٨]. وفى تعبير آخر عن حالة الثكل التي يعانى منها المجتمع الفلسطينى كتداعيات لذلك الصراع المستمر، يفقد سعدون كل أبنائه في دوامة الصراع المستمر ويشبهه القاص بأيوب: "فقد سعدون كل أبنائه فوزى وسالم ويوسف... إنه أب يفكرنا بأيوب"[٩].

حاول ميخائيل أن يستلهم الثكل الذى عرضه كنفانى فى روايته (عائد إلى حيفا): "انخرط بدر في القتال، كأنه كان ينتظر ذلك اليوم منذ طفولته، وفي السادس من نيسان عام ١٩٤٨ جيء ببدر الى الدار محمولاً على أكتاف رفاقه، كان مسدسه ما زال في وسطه، أما بندقيته فقد تمزقت مع جسده بقذيفة تلقاها وهو على طريق تل الريش... بدر اللبدة استشهد في سبيل تحرير الوطن"[١٠]. فالثكل هنا يعبر عن الاستشهاد فى سبيل الوطن، بينما الثكل فى رواية ميخائيل العبرية يعبر عن الخسة والغدر فى اغتيال شخصيات فلسطينية بعينها، ويرصد تداعيات الصراع لدى الجانب الفلسطيني، فيكاد لا توجد أسرة فلسطينية إلا وقد فقدت واحداً أو أكثر من رجالها، كما لو أن الموت يتربص بالبشرية في كل مكان وفى كل زاوية كما جاء فى الرواية العبرية:"هنا، يلقى الرجال حتفهم يومياً، فالموت لدينا يتربص بالحياة في كل زاوية"[١١].

إنه يرصد واقعاً حقيقياً يحدث يومياً على الساحة الفلسطينية؛ وهى ممارسات وحشية يتلذذ بها الجندي الإسرائيلي فى حالة غريبة حار فيها علماء النفس فى تفسيرها؛ ولكن يمكننا إرجاعها إلى طبيعة النشأة التي حرص الآباء الإسرائيليون على غرسها فى الطفل الإسرائيلي، سواء فى البيت أو المدرسة، مما خلق شخصية إسرائيلية تتسم، بصفة عامة، بروح العنف التى تربت عليها منذ صغرها، فهى لم تفرق بين كبير وصغير، ولكنها تمارس العنف لمجرد العنف.

وهو أمر يفسره الدكتور قدري حفني بقوله : " تسود روح العنف فى نفسية هذه الشخصية كتعبير عن طاقة مكبوتة، وعن ظروف وقعت أسيرة فيها. وروح العنف يمكن الإحساس بها كقوة تحريرية كتنفيس عن طاقة مكبوتة، لتخفف من نير العبودية التي لم يعد ضغطها محتملاً، كانعتاق، كتحرير "[١٢].

"وهو هنا يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية. إن العنف يصبح هنا مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة، لأنه حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة"(١٣). وهو وضع ساهمت فيه عوامل كثيرة، من أحداث تاريخية ورغبات قومية أسبغت على الشخصية الإسرائيلية منذ صغرها حتى تتناسب مع طبيعة الصراع ومتطلبات كل مرحلة.

أما الشخصية الفلسطينية فإن مارست العنف فهى تمارسه كرد فعل فحسب، فهى تدافع عن نفسها وعن أرضها التي اغتصبت، وضد الممارسات الوحشية الإسرائيلية على أرضها. واستطاعت من خلال ممارستها للعنف المضاد والمشروع أن تؤثر فى الجانب الإسرائيلي؛ رغم تفوقه فى القوة والسيطرة.

وعلى النقيض من ذلك لم تمارس الشخصية الفلسطينية فى رواية كنفانى؛ العنف؛ بل هى تدافع عن نفسها وعن أرضها التي اغتصبت: "طوال الطريق كان يتكلم ويتكلم ويتكلم، تحدث إلى زوجته عن كل شيء، عن الحرب وعن الهزيمة وعن بوابة مندلبوم التي هدمتها الجرارات. وعن العدو الذي وصل إلى النهر والقناة ومشارف دمشق خلال ساعات. وعن وقف إطلاق النار والراديو ونهب الجنود للأشياء والأثاث، ومنع التجول، وابن العم الذي في الكويت يأكله القلق، والجار الذي لم أغراضه وهرب، والجنود الثلاثة الذين قاتلوا وحدهم يومين على تلة تقع قرب مستشفى أوغستا فكتوريا، والرجال الذين خلعوا بزاتهم وقاتلوا في شوارع القدس"(١٤).

لقد وضع الكاتب الإسرائيلى المجتمعين على قدم المساواة فى مسألة الثكل والعنف، وهو أمر فيه غبن للجانب الفلسطيني، إذا وضعنا فى الاعتبار فارق القوة التي هى لصالح الجانب الإسرائيلي، والحق المسلوب الذي يبحث عنه الجانب الفلسطيني. وإذا كان ميخائيل يحاول فى روايته هذه أن يبحث أو ينقب فى تداعيات الصراع فحسب، دون البحث فى إشكاليته، فإن هذا التناظر يشكل فى الحقيقة تسطيحاً للصراع ومساواة فى الحقوق بين الطرفين.

فى إطار استلهام القصة الروائية لكنفانى (عائد إلى حيفا) يطالعنا القاص فى رواية (حمائم فى ميدان ترافجر) بنبأ مقتل افرايم ابشتاين، الأب اليهودى الذى تبنى الطفل الفلسطينى، فى حرب سيناء، وهو "ايفرات كوشين" فى رواية كنفانى: "عندما بلغ زئيف الثامنة من العمر، سقط افرايم ابشتاين فى حرب سيناء."[١٥]، تماما مثلما ذكر القاص على لسان "دوف" فى رواية كنفانى: "أما أبي فقد قتل في سيناء قبل ١١ سنة"[١٦]. وربما نلاحظ هنا أن سقوط الأب فى الروايتين جاء فى حرب غير عادلة، حيث اجتاحت إسرائيل سيناء فى حرب ١٩٥٦، إنها حرب تمثل عدواناً واحتلالاً لأرض عربية. ولكن ميخائيل يعرض هنا الثكل فحسب دون التدقيق فى أسبابه، بينما يعرض كنفانى الثكل كرمز للمقاومة والدفاع عن الوطن.

وفى إشارة إلى العمليات الفدائية التي يقوم بها الناشطون الفلسطينيون داخل إسرائيل، يلقى ثمانية إسرائيليين مصرعهم فى عمليتين متعاقبتين: "عاشت إسرائيل يوماً عصيباً. لقد انفجرت عبوة ناسفة فى سوق الكرمل، ووصل عدد القتلى إلى ستة إسرائيليين. وبعد مرور عدة ساعات حدث انفجار آخر فى المحطة الرئيسية بعفولا أودى بحياة اثنين آخرين"[١٧]. ويقول القاص فى رواية ميخائيل أيضاً: "لقد وقف أقوى جيش فى الشرق الأوسط لا حول له ولا قوة أمام أعداء يتطلعون فى شغف إلى القتل والموت. فلم تصنع بعد رصاصات أو قنابل من شأنها أن ترعب منتحر"[١٨].

وبعيداً عن كلمة "منتحر" هنا، التي تعبر عن ظلم تاريخي لشعب يناضل من أجل وطنه، فإن ظلم آخر يجتنبه ميخائيل فى حق الفلسطينيين الذين وصفهم بالأعداء، وتطلعهم إلى القتل فى شغف، "بيد أن الجمود السياسي، مع ذلك، يحول هذا الظلم من حادثة فردية حادة وذات أبعاد تراجيدية إلى وضع مزمن يولد يومياً أشكالاً جديدة من الظلم، وهى الأشكال التي قرر ميخائيل أن يلقى عليها نظرة مباشرة وفاحصة"[١٩].

وعلنا نلاحظ هنا مديح غير مقصود من جانب ميخائيل لتلك العمليات التي يقوم بها هؤلاء الناشطون الذين لم ترعبهم قوة، فهم يموتون من أجل غاية نبيلة وهى الوطن السليب.

ولعلنا نلاحظ أيضاً تحيز ميخائيل للجانب الإسرائيلي لاسيما أنه يلقب الفلسطينيين بالأعداء وبالمنتحرين، رغم أنه يبدو وكأنه يعرض الثكل فى مساواة بين الجانبين، وهو تناقض يظهر مدى انحيازه لطرف دون الآخر. وإذا كان هذا أمراً طبيعياً على اعتبار أنه أديب إسرائيلي، فإن الإنسانية وحق الإنسانية التي كتب من أجلها هذه الرواية، كما يقول، ربما يقصد بها الجانب الإسرائيلي فحسب، رغم اعترافه بأن كلا الجانبين وقعا فى فخ الانتقام والقتل:"لقد وقع الفلسطينيون والإسرائيليون فى دوامة القتل والانتقام "[٢٠].

كان موت الأخوين اليهودى والفلسطيني فى نهاية الرواية تعبيراً عن حالة الثكل التي تجتاح المجتمعين على حد سواء، وتعبيراً عن تداعيات الصراع على المستوى النفسي. فالبطل الذي يحمل الهويتين معاً يلقى حتفه وهو فى طريقه إلى أمه الفلسطينية المريضة، التي استنجدت به، فهرع إليها وهو يستقل سيارته الفارهة التي تحمل لوحات معدنية إسرائيلية، وتعترضه مجموعة من الشباب الفلسطينيين وتعتدي عليه، ظناً منهم أنه إسرائيلي، فيخرج أخوه الفلسطيني "كريم " ليدافع عنه، فيلقى الاثنان حتفهما على أيدي هؤلاء الشباب الفلسطينيين:

"يا ست نبيلة، يا أم كريم... لم أر فى حياتي مثل هذه التضحية. لقد دافع كريم عن ذلك اليهودى، عن أخيه، و لقيا الاثنان حتفهما"[٢١].

وهكذا، نجد البطل، الذي يعد نبراس الثكل الفلسطيني الإسرائيلي، يسوقه ميخائيل إلى الموت فى نهاية الرواية، بعد أن نجح فى أن يحب أسرتيه العربية واليهودية، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لكل الأمهات بأن يحافظن على أبنائهن من دوامة الصراع.

"لقد أرسل ميخائيل، فى نهاية الرواية، الأخوين اليهودى والفلسطيني إلى الموت. ورحل الاثنان وكل منهما يدافع عن الآخر.. إنها نهاية مذهلة.. كما لو أنه يريد أن يقول لنا: إن علاقة الدم أقوى من الدين والقومية، وأنه من الممكن أن نسمو، بسهولة، بأنفسنا فوق كراهية السنين التي يفقد فيها الرجال؛ ويزداد فيها النساء الثكالى، هؤلاء النساء اللاتي عليهن أن يصنعن السلام باسم الأمومة وباسم العقل والحكمة"[٢٢]. بينما عاش البطل فى

نهاية الرواية لكنفانى؛ إنه إذا رحل فهناك المئات الذين يحلون محله ليلتقون فى المعركة المصيرية التى لم تحسم بعد.

وتعلق الناقدة الإسرائيلية ياعيل بنينى على هذه النهاية بقولها: "لقد وصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول زئيف أن يصل إلى أسرته فى رام الله، وهو يستقل سيارته ذات الهوية الإسرائيلية. ووصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول الأخ الفلسطيني أن يدافع عن أخيه زئيف فى مواجهة غضب جموع الشباب الفلسطينيين خشية أن يمثلون به"(٢٣).

فيما يؤكد الناقد الإسرائيلي "يورام ملتسر " على أن هذه النهاية جاءت كرسالة مهددة لكلا الطرفين، وكتحذير من الوضع الذي آل إليه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، حيث يقول: "تتركنا هذه الرواية مع استنتاجات واضحة ومتشائمة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي. فكلا الطرفين يتعانقان عناقاً مميتاً، مثل الذين يعيشون فوق بركان، مهما فعلوا أو امتلكوا، لن يستطيع أحد منهم تغيير حقيقة أن نهايتهم محسومة مع انفجار هذا البركان... فالكارثة تخلف وراءها كارثة على التوالي حتى يصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى مساواة كاملة، ولكن عند موتهم فقط"(٢٤).

أما الناقد والأديب الإسرائيلى انطوان شلحت فيرى أن هذه النهاية المأساوية تعبير واضح عن وضع معوج مازال يعيشه الطرفان، حيث يقول: "جاءت هذه النهاية كتعبير عن ذلك الواقع المعوج الذي مازلنا نعيشه حتى هذه اللحظة"(٢٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى شيوع فكرة (مقتل البطل) فى الأعمال الأدبية الإسرائيلية؛ التى تتناول الجانب الإنسانى فى الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ففى هذه الحالة فإن موت البطل يعفى الأديب الإسرائيلى، الذى يبدى تعاطفاً ما –أو هكذا يتصور– من الحرج فيما يتعلق بموقفه الإنسانى من الصراع. فموتيف (مقتل البطل)، أو أحد طرفى الصراع ربما يشير إلى عدة نقاط، وهى:

(١) طرح فكرة التعايش الإنسانى بين الطرفين، ما هى إلا محاولة من الأديب الإسرائيلى، للتغطية على ثقافة العنف التى تسيطر على المجتمع الإسرائيلى بصفة عامة، والجنود

الإسرائيليين بصفة خاصة. و(مقتل البطل) هنا يعفيه من مواصلة طرحه لهذه الفكرة من ناحية، ويجعله فى نفس الوقت كأديب قام بدوره الإنسانى من ناحية أخرى. كما أن فكرة الإنسانية التى يبديها بعض الأدباء الإسرائيليين فى أعمالهم الأدبية هى فكرة شائعة ولكنها غير منصفة. وعلنا نذكر قصة (الأسير) التى كتبها الأديب الإسرائيلى ساميخ يزهار فى أعقاب حرب ١٩٤٨، وفيها طرح موضوع تعاطف الجندى الإسرائيلى مع الأسير العربى وهما فى طريقهما للسجن، وتأرجح الجندى ما بين إطلاق سراح الأسير العربى لدواع إنسانية وبين تسليمه للسجن، وقد ترك الأديب النهاية مفتوحة لتخمين القارىء دون أن يوضح مصيره هل قتل؟ أم سجن؟ فقد كان هدفه إظهار الجانب الإنسانى فى الجندى الإسرائيلى فحسب. وربما حاولت شيمش أيضاً إظهار الجانب الإنسانى فى الشخصية الإسرائيلية التى تتميز بالعنف والروح العدوانية. وهى محاولات أدبية مكشوفة؛ تهدف إلى تجميل وجه إسرائيل القبيح فحسب.

(٢) صعوبة حل الصراع، فى ظل التراكمات التاريخية له، والأحداث المتبادلة بين الجانبين، وتعنت بعض التيارات الدينية المتشددة داخل المجتمع الإسرائيلى فى مسألة حل الصراع لاعتبارات دينية، وغير ذلك، يحول دون تبنى فكرة واضحة أو موقف واضح من الصراع المتواصل بين الجانبين.

(٣) تبقى استقلالية الأديب الإسرائيلى استقلالية جزئية فقط، فهو هنا يخضع لمتطلبات "الأنا الجمعى" وليس "الأنا الفردى"؛ أى أنه وإن كان على قناعة برفض الصراع ومقته وسأمه باسم الإنسانية، فإنها قناعة تتعارض مع الواقع الذى يعيشه. وبالتالى تبقى الإنسانية التى يتحدث باسمها محل شك وريبة تجاه نواياه الحقيقية.

ولعل الصورة النمطية الشائعة عن العربى الفلسطينى فى الكثير من الأعمال الأدبية العبرية التى تتناول الصراع من منظور إنسانى تؤكد على شيوع فكرة (مقتل البطل) فى نهاية العمل كنجاة للأديب عند طرح مثل هذه الأعمال التى تبدو إنسانية.

(٢) **مشاعر الكراهية والعنف**:

تركت تداعيات هذا الصراع المستمر منذ عقود أثارها النفسية على كلا الجانبين، فكان للأحداث التاريخية المتعاقبة وقعها المرير، بحيث حمل كل طرف مشاعر الكراهية والغضب تجاه الطرف الآخر، عبر عنها ميخائيل وكنفانى فى روايتيهما. لقد حمل اللقاء الأول الذي جمع بين "زئيف" البطل فى رواية ميخائيل، ووالديه الحقيقيين مرارة الأيام ومشاعر الغضب والكراهية التي تجلت فى أعين والديه، وهما ينظران إليه وهو يرتدى بزته العسكرية الإسرائيلية، تلك العسكرية التي اغتصبت الأرض والولد: "دخل زئيف إلى حجرة الاستقبال الصغيرة وتجمد فى مكانه... كان يرتدى زي الجيش الإسرائيلي... فتوجهت إليه ريفاه قائلة بالإنجليزية: ها هما والداك الحقيقان. للأسف، نسيت اسمهما"(٢٦). كان مشهد اللقاء ينذر بصدام بين الأب والابن، حيث " كانت الإنجليزية وزي الجيش الإسرائيلي بمثابة حائلاً حقيقياً بينهما"(٢٧). كما أن مشاعر المرارة والكراهية كانت طاغية لدى والدين يران ابنهما على هذه الصورة، لاسيما وهو لقاء لم يكن به عناق أو قبلات بين والدين فلسطينيين يعيشان تحت نير الاحتلال الإسرائيلي وبين ابنهما (الجندي الإسرائيلى). وكانت نتيجة الحوار الذي دار بالإنجليزية بين زئيف وأبيه الفلسطيني، كافية لانفجار شحنة الغضب والكراهية فى وجه الابن الذي أكد لأبيه على إخلاصه لهويته اليهودية: "سألته نبيلة ألا يشعر بأنها أمه... فأجاب: لا، لم أشعر بذلك، ريفاه التي تجلس هنا، هى أمي"(٢٨). وهى نفس الجملة التى تلفظ بها "دوف" فى رواية كنفانى(عائد إلى حيفا): "أنا لا أعرف أما غيرك، أما أبي فقد قتل في سيناء قبل ١١ سنة، ولا أعرف غيركما"(٢٩). فما كان من الأب الذي أسود وجه من السخط والغضب إلا الوعيد لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضه وولده، موجهاً حديثه إلى ابنه: "سيكون لقاؤك القادم مع أخيك فى ساحة القتال"(٣٠). وهى نفس الجملة التى جاءت أيضاً فى رواية كنفانى: "قد تكون معركتك الأولى مع فدائي اسمه خالد، وخالد هو ابني، أرجو أن تلاحظ إنني لم أقل إنه أخوك، فالإنسان كما قلت قضية، وفي الأسبوع الماضي التحق خالد بالفدائيين أتعرف لماذا أسميناه خالد ولم نسمه خلدون ؟ لأننا كنا نتوقع

العثورعليك، ولو بعد عشرين سنة، ولكن ذلك لم يحدث. لم نعثر عليك. .ولا أعتقد إننا سنعثر عليك"[٣١].هكذا وصف ميخائيل الماضي الذي أصبح "دوف" اليهودي ، والمستقبل الذي أصبح "خالداً" فى ابنه الثانى.

وفى تعليق لها على هذا اللقاء الذي تأججت فيه مشاعر الكراهية والعنف تقول الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر: "كانت الجمل التي تبادلها الأب مع الابن باللغة الإنجليزية ذات طابع عنيف وعدواني. والسبب فى ذلك، أن الأب كان على يقين بأن زئيف مازال مخلصاً لهويته اليهودية. لذا، فقد أقسم بأن يحارب اليهود حتى يقضى عليهم، وأعلن فى تحد أن كريم سوف يلتقى بزئيف فى ساحة المعركة، وهناك سينتصرعليه"[٣٢].

كان مشهد واحد من مشاهد حرب ١٩٤٨ كافياً لحفر مشاعر الكراهية فى نفوس الأباء والأمهات وهم يرون أطفالاً يموتون جوعاً وقتلاً كما جاء فى رواية ميخائيل: "كانت هذه الحرب واحدة من تلك الحروب التي وصلت حتى بيروت فى الجبهة الداخلية. وقد رأيت بنفسي، فى تلك الأيام، كثيراً من الأطفال وقد تركوا فى فراشهم، وفى الحقول، ورأيتهم وهم يلقون من المركبات. وكثيراً منهم بكوا حتى الموت وهم بجوار جثث أمهاتهم "[٣٣]. وهو المشهد نفسه الذى صاغه كنفانى من قبل فى (عائد إلى حيفا): "كانت السماء نارا تتدفق بأصوات رصاص وقنابل وقصف بعيد وقريب، وكأنما هذه الأصوات نفسها كانت تدفعهم نحو الميناء. ورغم أنه كان غير قادر على التركيز على أيما أمر معين، فإنه رأى كيف بدأ الزحام يتكاثف مع كل خطوة. كان الناس يتدفقون من الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه الى الميناء، رجالا ونساء وأطفالا، يحملون أشياء صغيرة أو لا يحملون، يبكون أو يسبحون داخل ذلك الذهول الصارخ بصمت كسيح. وضاع بين أمواج البشر المتدفقة وفقد القدرة على التحكم بخطواته. إنه ما يزال يذكر كيف أنه كان يتجه نحو البحر وكأنه محمول وسط الزحام الباكي، المذهول، غير قادر على التفكير في أي شيء، وفي رأسه كان ثمة صورة واحدة معلقة كأنما على جدار : زوجته صفية وابنه خلدون"[٣٤]. كما كانت المظاهرات وإطلاق الرصاصات فى الهواء من مظاهر التعبير عن الكراهية

والغضب لدى الطرفين: "كان زئيف يشاهد التلفاز، فرأى كيف كانت ردود الفعل غاضبة. فقد أطلقت الأعيرة النارية فى الهواء، وأحرقت الأعلام"[٣٥].

هكذا، يمكننا القول؛ إن مشاعر الغضب والكراهية كانت سجالاً بين الطرفين، فعلى الرغم من رصد ميخائيل لهذه المشاعر على مدار روايته هذه، فإنه لم يضع فى اعتباره اختلاف الواقع الفلسطيني عن نظيره الإسرائيلي، ذلك الواقع الذي يعيش القهر والذل والبحث عن الحقوق المسلوبة، واقع الأرض المغتصبة، والأب المفقود، والأم الثكلى. إن وضع المشاعر الفلسطينية على قدم المساواة مع المشاعر الإسرائيلية فيه غبن وتغييب للحقوق الفلسطينية، إذا وضعنا فى الاعتبار الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون، وفارق القوة الرهيب لصالح الجانب الإسرائيلي، ومماطلة إسرائيل بالنسبة لوضع اللاجئين الفلسطينيين: وهو أمر تؤكد عليه شيرا عنبر بقولها: "إن الاحتلال لم يعط لهم الفرصة للعيش حياة عادية، فقد أصبح الغلق والتمشيط والاعتقالات أمراً عادياً فى المناطق. فمثل هذا الوضع من شأنه أن يزرع الكراهية فى قلوب أبناء الأسرة الفلسطينية "[٣٦]. وهو اختلاف لم يعيه ميخائيل، أو ربما كان يعيه وتجاهله فكتب روايته هذه كدعوة إلى نسيان الماضي الأليم طالباً الجانبين التحلي بشجاعة النسيان، حيث يقول: "إنني آمل أن تساعد هذه الرواية فى مداواة جروح طرفي الصراع، حيث إنني لم أتطرق فى هذه الرواية إلى المعضلات الكبيرة والمؤلمة لكلا الشعبين... لقد تبنيت فى هذه الرواية شعار الأديب والشاعر اليهودى التركي موريس فرحى وهو (شجاعة النسيان). إنني أقول ذلك فى كل المؤتمرات التي يشارك فيها ممثلون من الجانبين: (هيا ننسى الماضي من أجل مستقبل أفضل لأبنائنا وأحفادنا)" [٣٧].

بينما كان كنفانى واضحاً تجاه قضيته ووطنه المسلوب عندما قال للمرأة اليهودية التى تعيش فى بيته الذى سلب منه: "تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتنا، فذلك شيء تحتاج تسويته إلى حرب"[٣٨].

(٣) صورة "الآخر" فى الرواية:

"إن (الآخر) قد يكون أحد الأفراد وقد يكون جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم. (فالآخر) قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً. وقد يكون صديقاً وقد يكون عدواً. وقد يكون عدواً نفكر فى أنسب الوسائل للتعامل معه "[٣٩].

غير أن هناك حقيقة رئيسية لا يمكن أن نغفلها ونحن بصدد الحديث أو التعريف (بالآخر) وهى أن (الآخر) يكون – دوماً– ثنائية نفى أو نزاع مع (الذات) تختلف باختلاف دوافع وتطور هذه الثنائية، وتختلف أيضاً باختلاف المصالح والأحداث والأهداف.

وهكذا، يبقى (الأخر) – دوماً– صورة تعكسها (الذات) كيفما تشاء، وهى صورة قد تكون بعيدة عن الواقع وقد تكون قريبة، فالمحك الرئيسي فى التقاطها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلاقة (الذات) – التي تعكس هذه الصورة– مع (الآخر)، وبحالة هذه العلاقة من حب أو كراهية أو نزاع؛ أو رغبة فى النفي من قبل عدو يعرقل نمو (الذات) فما من (الذات) إلا تغييب هذا العدو أو ذلك (الآخر).

وفى إطار جدلية العلاقة بين (الذات) و(الآخر) عكس ميخائيل صورة الآخر (الفلسطيني) فى هذه الرواية كي يرتبط بحالة من النزاع مع الذات (الإسرائيلية)، وهى حالة تاريخية ممتدة عبر عقود عديدة، اتخذت فيها صورة الآخر (الفلسطيني) أشكالاً ونماذج عديدة، ارتبطت برغبة (الذات) الإسرائيلية فى نفى أو إثبات هذا الآخر طبقاً لمجريات الصراع وتطوره.

ويمكننا أن نحدد الصورة الحقيقية التي رغب ميخائيل فى عكسها عن الآخر (الفلسطيني) فى اللحظة التي عرف فيها بطل الرواية "زئيف" أنه عربى، تلك اللحظة التي يمكن من خلالها التعرف عن المكنونات الحقيقية المخزونة فى وعى (الذات) الإسرائيلية عن الآخر (الفلسطيني): "إذن، لم أكن أبداً ابشتاين، قالها لنفسه، ولم أكن ابناً لإحدى الأسر الناجية من الحدث النازي، ولم أكن أوروبي الأصل. إنني عربوش، مجرد عربوش "[٤٠].

هكذا، نقلته هذه اللحظة – لحظة معرفة الحقيقة – من الذات (الإسرائيلية)، ومن المجتمع الاشكنازى المتمدن والمتحضر، كما يقول القاص إلى الآخر بصورته المعروفة

والمخزونة فى وعيه كإسرائيلي، تلك الصورة التي شكلت وعى جيل كامل من الإسرائيليين تجاه الفلسطينيين، فكلمة "عربوش" لفظة تعبر عن الصورة الوضيعة والمتدنية التي رسمها الفكر الصهيوني عن العرب، وهى الصورة التي جاءت كنتاج لموروث ثقافي وتاريخي صيغ فى إطار محاولة تغييب الآخر (الفلسطيني) ونفيه،

يقول الناقد الإسرائيلي ب. الموج عن "زئيف" البطل فى رواية ميخائيل حينما عرف إنه عربى: "فجأة، وجد زئيف نفسه غير منتمى للجيل الثاني من أحداث النازي... بل هو منتمى للجيل الثاني من النكبة الفلسطينية. ويحكى القاص هنا، كيف كان زئيف يغنى أغاني معادية للعرب، وكيف كان يصورهم كمخلوقات وضيعة، وخائنين، وقذرين وبدائيين، تماماً كما صورتهم كتب الأطفال الإسرائيلية التي قرأها فى صغره، ودراسات المؤرخين التي درسها فى كبره. عربي اللحظة التي أدرك فيها أنه سامي انتابه شعور بالاشمئزاز من نفسه"[٤١]. وهى صفات صاغها ميخائيل فى روايته التى يدعو فيها إلى الطمأنينة والسلام، بينما يكيل للعربى صفات دأب الأدب الإسرائيلى على إلصاقها له دوما، وهو تناقض واضح وغريب يعبر عن متطلبات الأنا الجمعى فى غفلة من غفلات التخييل الروائى. وهى حقيقة يؤكد عليها كثير من العلماء، لا سيما "هناك نظريات فى النقد الأدبي ترى أن العمل الأدبي ما هو إلا وثيقة اجتماعية ثقافية، تعبر، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن (الأنا الجمعي) وليس بالضرورة عن (الأنا الفردي). وبمعنى آخر، فإن الأديب الفرد هو جزء من كل أيدلوجي، لذا فإنه يعبر عن الأنا (الجمعي) الذي هو جزء منه وينتمي إليه "[٤٢]. ويبدو هذا الأمر واضحاً فى جدلية المتناقضات التي وقع فيها ميخائيل فى وصفه للآخر، الذي يعي تماماً من هو؟ وأي قضية يدافع عنها؟ لاسيما وأنه من أصل عراقي وعاش مع العرب فى العراق وفلسطين فترة طويلة وعلى دراية واسعة بسلوكياتهم وأوصافهم. ومن هنا فلا نستطيع أن نتقبل منه مثل هذه الأوصاف السلبية التي يدرك تماماً أنها منافية للحقيقة، وقد نقبل هذا (مع التحفظ الشديد) من أديب إسرائيلي من أصل غربى لم يعش معهم، بل نقل أوصافهم عن منظومة أدبية منظمة ومرتبة لخدمة قضية بعينها، وبهدف واضح يستهدف الآخر، ولكنه أبى أن يكون

فى منأى عن هذه المنظومة الأدبية وتلك الإرادة الجمعية، حتى وإن تعارض ذلك مع فكرته الأساسية التي كتب من أجلها هذه الرواية.

بينما كان موقف كنفانى من الآخر مغايراً تماماً لموقف ميخائيل، إنه موقف الوضوح والحسم فى رسمه لصورة الآخر فى مخيلته، وهو يخاطب ابنه "خلدون" الذى أصبح "دوف" الإسرائيلى: "أنا لا أتحدث إليك مفترضا إنك عربي، والآن أنا أكثر من يعرف أن الإنسان هو قضية، وليس لحما ودما يتوارثه جيل وراء جيل مثلما يتبادل البائع والزبون معلبات اللحم المقدد، إنما أتحدث إليك مفترضا أنك في نهاية الأمر إنسان. يهودي. أو فلتكن ما تشاء. ولكن عليك أن تدرك الأشياء كما ينبغي... وأنا أعرف أنك ذات يوم ستدرك هذه الأشياء، وتدرك أن أكبر جريمة يمكن لأي إنسان أن يرتكبها، كائنا من كان، هي أن يعتقد ولو للحظة أن ضعف الآخرين وأخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم، وهي التي تبرر له أخطاءه وجرائمه"(٤٣). كما بدت صورة الآخر لدى كنفانى واضحة فى الرواية حينما وصفه بالسارق الذى سرق الأرض والولد: "إن خلدون، أو دوف، أو الشيطان إن شئت، لا يعرفنا ! أتريدين رأيي ؟ لنخرج من هنا ولنعد إلى الماضي . انتهى الأمر . سرقوه"(٤٤).

ثانياً: فكرة المصير المشترك لطرفى الصراع:

حرص ميخائيل منذ بداية أحداث روايته على تعميق فكرة المصير المشترك بين طرفي الصراع من خلال عقد تناظر مستمر بين الجانبين، فى محاولة تأصيل فكرة أن كلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض التي ساقهما القدر إليها، فجاءت روايته "كنوع من الفانتازيا التي تدور حول عالم جميل يعيش فيه الذئب مع الحمل، دون أن يكون واضحاً من هو الذئب ومن الحمل... على اعتبار أن القضية بلا ظالم أو مظلوم. فقد جاء اليهود، ممثلون فى ريفاه الناجية من أحداث النازي، إلى هذه الأرض دون أن يكون أمامهم خيار آخر، بينما طرد العرب من بيوتهم بمنتهى الوحشية"(٤٥). بينما لم تكن فكرة أن المصير المشترك بين طرفي الصراع حجة لاغتصاب الأرض والولد، هى هدف كنفانى فى روايته (عائد إلى حيفا)،

بل هى وثيقة سجل فيها أحداث تاريخية تقول، لقد أصبحنا مشردين عبر البحر، عابرين نحو المجهول، بينما من كتب عليهم الشتات، يصبحون بمأوى ونحن نصبح مشردين.

(١)أحداث النازى (النكبة اليهودية) – النكبة الفلسطينية

أشار كنفانى فى روايته إلى أسرة "دوف" الناجية من أحداث النازى قبل أن يسكنوا بيت "سعيد وصفية" بحيفا: "كانت ميريام قد فقدت والدها في أوشفيتز قبل ذلك بثماني سنوات. وقبل ذلك، حين داهموا المنزل الذي كانت تعيش فيه مع زوجها، ولم يكن عند ذاك فيه، التجأت إلى جيران كانوا يسكنون فوق منزلها. ولم يجد الجنود الألمان أحدًا،إنهم في طريق نزولهم على السلم صادفوا أخاها الصغير قادما إليها، كان عمره عشر سنوات، وقد جاء آنذاك ليخبرها – أغلب الظن – أن والدها قد سيق إلى المعتقل وأنه الآن صار وحده. إلا أنه حين رأى الجنود الألمان استدار وأخذ يعدو هاربا. وقد استطاعت أن ترى ذلك عبر تلك الكوة الضيقة التي تتيحها المسافة الصغيرة المتروكة بين مجموعة السلالم ومن هناك شهدت كيف أطلق عليه الرصاص"[٤٦]. كانت إشارة كنفانى إلى أسرة "دوف" الناجية من أحداث النازى، تشير إلى محاولات تعويض اليهود عما جرى لهم، ولكن على حساب شعب آخر، فقد طرد اليهود، وكذلك فعلوا ما حدث معهم، وقاموا بتهجير الفسلطينيين قسراً. لم يتعظوا مما حدث لهم، وفعلوا الشر الذى حاق بهم، وربما كان اعتراف المرأة اليهودية بوالدى "دوف" يشير إلى خداع الصهيونية لجموع اليهود الناجين والذين جيء بهم إلى هنا، لدى كنفانى. بينما عرض ميخائيل منذ بداية أحداث روايته أصل أسرة البطل الناجية من أحداث النازى من منطلق تعميق فكرة المصير المشترك بين طرفي الصراع من خلال عقد تناظر مستمر بين الجانبين، فى محاولة تأصيل فكرة أن كلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض التي ساقهما القدر إليها، أى أن النكبة الفلسطينية سبقها أحداث مروعة عاشها اليهود فى الحدث النازى، وهو ما يطلقون عليه "النكبة اليهودية".

وإذا كانت شخصية زئيف البطل قد حملت هذه الفكرة فى رواية (حمائم فى ميدان ترافلجر) العبرية، وتطلع من قبل ميخائيل، لعيش الشعبين تحت مظلة الفدرالية الواحدة،

بادعائه أن هذا الصراع لم يكن صراعاً بين ظالم ومظلوم، ولكنه صراع الطرفين ضد القدر الذي أوجدهما معاً فى قارب واحد، فإن كنفانى صاغ شخصية البطل "دوف" على نحو مغاير، فقد أكد على هويته الإسرائيلية وانتماءه لليهودية؛ فى تأكيد صارم على اغتصاب الأرض والولد. مما يشير إلى أن ميخائيل استلهم القصة العربية الروائية كى يغير من مفاهيم راسخة فى العقلية العربية ولكن دون جدوى، لأنه يعرض فى هذه الرواية واقع الصراع فحسب دون أن ينقب فى إشكالياته أو أسبابه ودوافعه، فقد كان هدفه الرئيس هو تحذير وتعرية للواقع، وهو أمر فيه تسطيح للصراع ويثير، فى نفس الوقت، تساؤلات عديدة حول الهدف الرئيس الذي سعى إليه ميخائيل وكتب من أجله هذه الرواية. وجاء لنا ببطل حمل على عاتقه قضية شعبين متصارعين، "فعندما علم زئيف بحقيقة أنه ابن يهودي لوالدين فلسطينيين، وقتها فقط حمل على كتفيه حملاً مزدوجًا وغير محتمل تقريباً"(٤٧).

لقد قابل ميخائيل النكبة الفلسطينية وأحداث حرب ١٩٤٨، التي تعرض فيها الفلسطينيون لموجة من الطرد والتهجير من أراضيهم، بما حدث لليهود فى أحداث النازي، أي أنه قابل النكبة الفلسطينية بالنكبة اليهودية (أحداث النازى)، حيث يتضح من أحداث الرواية أن أسرة "زئيف" من الناجين من أحداث النازي، بينما أسرته العربية من الأسر التي نجت من النكبة الفلسطينية: "كان زئيف ابناً للجيل الثاني الذي يمثل أحداث النازي بالنسبة لليهود، والنكبة بالنسبة للفلسطينيين"(٤٨).

وربما يجدر بنا القول بأن ميخائيل ساوى هنا بين الحدثين، فأحداث النازي لم تغتصب أرضاً لليهود، ولم تهجرهم من بيوتهم فى حين أن النكبة الفلسطينية تختلف تماماً عن هذا الحدث الذي وقع لليهود، ففيها تم تهجير آلاف الفلسطينيين من أرضهم، وأبيدت قرى بأكملها واغتصبت أرضاً من شعب عاش عليها آلاف السنين. كما أن صياغة الأمر على هذا النحو يعد غبناً وتسطيحاً للصراع ينطوي عليه تساو فى مصير تاريخي لا شأن للفلسطينيين به، ومن ثم ضياع للحقوق الفلسطينية المغتصبة.

(٢) **ازدواج الهوية**:

كان كنفانى حاسماً فى صياغة هوية البطل "دوف" أو "خلدون" فى روايته (عائد إلى حيفا)؛ وهى هوية يهودية بحكم النشأة والتهود وزى العسكرية الإسرائيلية، وكانت هويته على هذا النحو تدلل على اغتصاب الأرض والبيت والولد. لقد فقد الأب ابنه "خلدون" الذى صار "دوف"، وسيفقد ابنه الثانى "خالد" الذى ينتمى إلى الفدائيين الفلسطينيين، كما يقول: "إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي... ألم أقل لك منذ البدء إنه كان يتوجب علينا ألا نأتي.. وإن ذلك يحتاج الى حرب ؟"(٤٩). بينما جاء لنا ميخائيل فى روايته (حمائم فى ميدان ترافلجر)، ببطل أشبه بالجبل الذي يحمل فوق كاهله هموم وطنين، إن صح التعبير، بحكم انتمائه بالنشأة إلى المجتمع الإسرائيلي، وبالدم إلى المجتمع الفلسطيني، فقد كانت اللحظة التي عرف فيها "زئيف/بدير" أنه فلسطيني بمثابة الصدمة التي شطرته إلى نصفين متضادين يحملان من الحروب والذكريات والتاريخ والأحداث والعنف والثكل ما يدفعهما إلى الدوران في حلقة مفرغة من الكراهية والانتقام. "لقد وقع زئيف بين ثقافتين، إحداهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية، ورغم أنه يشعر بكينونته اليهودية والإسرائيلية، فإنه تكيف مع الأسرتين ومع الثقافتين... فأقام علاقة حميمة مع أمه الفلسطينية، وعاش بسلام مع أسرتيه. وهذا كله يمثل خلفية للصراع في تلك البقعة من الأرض: أعمال المقاومة، وانفجار حافلات، وعالم من المحتلين في مقابل من احتلت أرضهم"(٥٠). "إن كل أنواع الأساطير المتعلقة بالتضحية ألقيت على كاهل هذا البطل، لاسيما وأنه الضحية الحقيقية في هذه الرواية وهو يبحث عن حقيقة هويته، فهو في الواقع نبراس الثكل الفلسطيني الإسرائيلي، سواء أكان يهودياً أم عربياً"(٥١).

هكذا كان كنفانى حاسماً وقاطعاً فى هوية البطل؛ بينما حاول ميخائيل من خلال هذا البطل أن يجر طرفي الصراع إلى حوار غير ممكن؛ بل ومستحيل من خلال فانتازيا أو صياغة لشخصية مزدوجة الهوية لم تحسم بعد كينونتها، هل هي فلسطينية أم إسرائيلية؟ إنه انعكاس حقيقي وطبيعي لحالتي الصراع والاحتقان في كلا المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي.

ويبدو أن ميخائيل وضعنا أمام جدال فلسفي، حول هوية الإنسان وهل الهوية تكون بالنشأة أم بالدم؟ وهل من الممكن أن يحمل الإنسان هويتين معاً؟ وهل تطغى إحداها على الأخرى؟ إنها تساؤلات حاولت أن تجيب عنها الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر، ولكنها فشلت، حين قالت: "أثارت قصة زئيف ونهايتها المدهشة، موضوعات عديدة جديرة بالبحث، فقد أثارت أسئلة أخلاقية فيما يتعلق بهوية الإنسان، والصراع غير المحتمل بين دولة إسرائيل والفلسطينيين، وأظهرت كيف تكون العلاقات مختلفة إلى هذا الحد بين أبناء الأسرة الواحدة. هذه القصة تبحث في المركب أو العنصر الذي يمكن أن نعتمد عليه في تشكيل هوية الإنسان، هل هو أصل الإنسان ونسله، أم البيئة التي نشأ فيها وتعلم؟"[٥٢]. ويجيب ميخائيل عن هذا السؤال، في هذه الرواية، على لسان القاص بقوله: "يولد الجميع كوعاء فارغ، والبيئة والدراسة يشكلان الفرد. أما الأصل والنسل والجذور والجينات فهي أمور غير مهمة، فهو إسرائيلي، ويهودي "[٥٣]. وهو أمر كان واضحاً فى حديث الأب للإبن فى رواية (عائد إلأى حيفا): " الانسان في نهاية المطاف قضية، هكذا قلت، وهذا هو الصحيح، ولكن أية قضية؟ هذا هو السؤال ! فكر جيدا. خالد هو أيضا قضية، ليس لأنه ابني، ففي الواقع. .. دع تلك التفاصيل، على أية حال، جانبا ...إننا حين نقف مع الإنسان فذلك شيء لا علاقة له بالدم واللحم وتذاكر الهوية وجوازات السفر. ..هل تستطيع أن تفهم ذلك؟"[٥٤].

كما يحاول ميخائيل فض التنازع الرهيب في نفسية البطل المزدوج الهوية بكل سهولة ويسر، فهو هنا يلغى الدم والنسل، ويغتصب الفرد مثلما اغتصبت الأرض، ويحكم على البطل قبل أن يحكم على نفسه، ويختار له الطريق ويحدده، لاسيما أنه يطلق عليه منذ الصفحات الأولى للرواية "زئيف"، ولم يذكر "بدير" اسمه الحقيقى سوى مرتين أو ثلاثة. وربما كانت إجابة ميخائيل غير كافية أو مقنعة "فهل معنى أن زئيف نشأ وتعلم كيهودي وشعر كذلك، أنه أصبح يهودياً، حتى وإن ولد لأسرة فلسطينية؟ وماذا تمثل الأسرة الفلسطينية في حياة زئيف؟ وإلى أي حد تكون أهميتها؟ "[٥٥].

إن فكرة المصير المشترك التي تحدث عنها ميخائيل وصاغ من أجلها هوية البطل على هذا النحو، لم تنبع عن قناعة كاملة بحق الفلسطينيين في الصراع، فهو يساومهم على الولد والأرض، ورغم أنه من بين قلة قليلة دعت إلى إقامة دولة فيدرالية بين الفلسطينيين والإسرائيليين دون أن يحدد لنا ملامح هذه الفيدرالية، فإن تفاعلاته مع الواقع الإسرائيلي، على مدار تلك الرواية، تدفع به في اتجاه قائمة "أدباء صهيونية الحد الأدنى"، إن صح التعبير، أي هؤلاء الذين يحسبون على ما يسمى باليسار الإسرائيلي، ويضعون خطوطاً حمراء لتنازلاتهم، فهم مازالوا يعيشون تحت تأثير الثقافة الصهيونية، وإن بدوا مخالفين لسياستها. وهو أمر يبدو واضحاً في الحديث الذي أجرته معه الصحفية الإسرائيلية "داليا كاربيل"، ونشرته في صحيفة "هاآرتس " تحت عنوان (أديب تحت تأثير).

وربما كانت "كاربيل" صادقة إلى حد بعيد، فلم يفق ميخائيل بعد من غيبوبة الصهيونية؛ ولم يسلم بوضوح ويعترف بحق الآخر رغم اعترافه بنديته، وأبقى الأمر ملتبساً، فيما يتعلق بفكرة المصير المشترك، وفيما يتعلق بهوية البطل؛ التي صارت معضلة لم يستطع ميخائيل حلها، فقضى عليه في نهاية الرواية، في إشارة إلى يأسه من حل هذا الصراع المزمن، وصعوبة تحقق تلك الفيدرالية التي يحلم بها، وإلى الوضع المأساوي الذي آل إليه طرفا الصراع، فجرفتهما عجلات العنف دون أن يقوى أحدهما على وضع العصا في تلك العجلات.

إنه وضع؛ وصفه الأديب الإسرائيلي يورام كانيوك في روايته **בא בימים** (رجل مسن) على لسان القاص؛ وهو يحكى قصة (اليهودى التائه) لأحد أصدقائه فى مدريد: "تاه يهودى فى إحدى الغابات، وظل يسير هنا وهناك دون أن يجد طريقاً للخروج من الغابة. مرت أيام كثيرة، حتى صارت ملابسه مهترأة. كان يشعر بالعطش والجوع. وفجأة رأى حارس الغابة يقف بعيداً، فهرع إليه وصرخ: أيها الحارس أيها الحارس، ساعدنى للخروج من الغابة. فأجابه الحارس، آسف، إننى هنا منذ عشرة أعوام،لكن باستطاعتى أن أساعدك فى شىء واحد فقط. إننى أستطيع أن أعلمك كيف لا تخرج من هذه الغابة"[٥٦].

خاتمة

من خلال ما سبق نستطيع استنتاج ما يلي:

(١) رصدت الروايتان باختلاف أهدافهما؛ بكل دقة واقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا الصراع في كلا المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلى.

(٢) كان كنفانى واضحاً فى طرح فكرته الروائية؛ اغتصاب وطن وولد، بينما حاول ميخائيل وضع الحقوق الإسرائيلية على قدم المساواة مع الحقوق الفلسطينية المسلوبة، تحت دعاوى المصير المشترك والقدر المحتوم. وهى محاولة غير عادلة فيها غبن للحقوق الفلسطينية، وتسطيح لإشكالية الصراع.

(٣) لم يجب ميخائيل عن كل الأسئلة التي طرحها في الرواية، فقد آثر أن يكون محذراً، على أن يكون منصفاً، ودعا الطرفين إلى التحلي بشجاعة النسيان، بينما كان كنفانى حاسماً فلم يساوم على ولده أو وطنه.

(٤) فى الوقت الذى حل فيه كنفانى لغز هوية البطل، لم يستطع ميخائيل حل هذا اللغز، فاختار الإجابة الخطأ، فمات البطل فى نهاية الرواية تعبيراً عن صعوبة الحل بالنسبة لميخائيل، أو تعبيراً عن الوضع الشائك والمعقد الذي آل إليه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

(٥) كانت رواية كنفاني العربية معبرة وموجزة، بها تكثيف كبير للواقع وتدقيق في المعنى، بينما كانت رواية ميخائيل العبرية المستلهمة من رواية كنفانى أشبه بالفانتازيا، ومغايرة للواقع المعيش، فإن فقدان الولد لا يعنى فقدان الوطن.

(٦) عائد إلى حيفا رواية أشبه بالوثيقة التى تخلد في الذاكرة معانى الهوية والانتماء والتاريخ، وحق العودة، والوطن، وهى معان لم يدركها الأديب الإسرائيلى سامى ميخائيل عند استلهامه قصة هذه الرواية.

هوامش البحث

(١) سامي ميخائيل: ولد سامي ميخائيل في بغداد عام ١٩٣٦ وقد حصل على تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وانتمى إلى الحزب الشيوعي العراقي فهي سن مبكرة. ثم هرب إلى إيران عام ١٩٤٨ بسبب مطاردة السلطات العراقية له على نشاطه الشيوعي. ومن هناك هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ واستقر فهي حيفا والتحق بالجامعة فيها فدرس علم النفس والأدب العربي. ثم أصبح أحد أعضاء رئاسة تحرير الاتحاد الناطقة باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ونشر العديد من القصص العربية القصيرة في مجلته الجديدة الشهرية تحت اسم سمير مارد، وكانت تدور حول حياة القادمين الجدد من العراق. وقد ترك ميخائيل هيئة تحرير الاتحاد عام ١٩٥٥ وبعدها هجر اللغة العربية، حيث تحول ميخائيل إلى الكتابة باللغة العبرية. أهم أعماله العبرية: "متساوون ومتساوون أكثر" ١٩٧٤عاصفة بين النخيل"رواية ١٩٧٥. أكواخ وأحلام" ١٩٧٨، "حفنة من ضباب" ١٩٧٩، "رعاية " ١٩٨٥، "بوق فهي وادي" ١٩٨٧، "فكتوريا" ١٩٩٣. وقد نال ميخائيل عدة جوائز أدبية مثل: جائزة بلدية حولون جائزة بلدية بتاح تكفا، جائزة الاتحاد الدولي لأدب الشباب.

(٢)غسان كنفاني: هو روائي وقاص وصحفي فلسطيني، ويعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتاب والصحافيين العرب في القرن العشرين. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية. ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان عام ١٩٣٦م، وعاش في يافا حتى أيار ١٩٤٨ حين أجبر على اللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت وبعد ذلك في بيروت منذ ١٩٦٠ وفي تموز ١٩٧٢، استشهد في بيروت مع ابنة أخته لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين. أصدر غسان كنفاني حتى تاريخ وفاته المبكّر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات والدراسات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّت إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. وجمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في أربعة مجلدات. وتُرجمت معظم أعمال غسان الأدبية إلى سبع عشرة لغة ونُشرت في أكثر من ٢٠ بلداً، وتمّ إخراج بعضها في أعمال مسرحية وبرامج إذاعية في بلدان عربية وأجنبية عدة.

(٣) עומר כרמון: סמי מיכאל، 28/5/2005، www.nfc.co.il

(٤) דליה כרפל: סופר תחת השפעה، עיתון הארץ ، 13/4/2005.

(٥) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، منشورات الرمال،قبرص، ٢٠١٣، (ص ٣٥)

(٦) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، וואללה– תרבות ובידור، 23/5/2005، www.walla.co.il

(٧) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، עיתון הארץ، 18/5/2005.

(٨) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، הוצאת ספרים עם עובד، תל אביב، 2005، (עמ'11).

(٩) שם، (עמ'52:54).

(١٠) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٢٧)

(١١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר שם، (עמ'151).

(١٢) د. قدري حفني : دراسة فهي الشخصية الإسرائيلية – الأشكنازيم، مركز بحوث الشرق الأوسط،جامعة عين شمس١٩٧٥.، (ص ٢٥٩).

(١٣) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٨٤).

(١٤) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص١)

(١٥) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם، (עמ׳31).

(١٦) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٢٧)

(١٧) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר שם، (עמ׳179).

(١٨) שם، (עמ׳179).

(١٩) יפעת וייס: שיבה בהמשכים، יונים בטרפלגר، עיתון הארץ(עמ׳2)،، 18/5/2005.

(٢٠) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם، (עמ׳179).

(٢١)סמי מיכאל: יונים בטרפלגר ،שם، (עמ׳259).

(٢٢)כשהיונימתייפחות،מערכתעיתוןתלאביב،ספרות،28/5/2005

(٢٣) יעל פניני :יונים בטרפלגר،23/5/2006، www.gfn.co.il.

(٢٤) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל،שם.

(٢٥) אנטואן שלחת: מפגש ישן– סיפור חדש، עיתון הארץ،24/5/2005.

(٢٦) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם، (עמ׳47).

(٢٧) שם.

(٢٨) שם، (עמ׳49).

(٢٩) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٣١)

(٣٠) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר שם، (עמ׳50).

(٣١) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٣٥)

(٣٢) שירה ענבר: על יונים וזאבים، 17/12/2005،www.bariqada.co.il.

(٣٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם، (עמ׳41).

(٣٤)غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٦)

(٣٥) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר שם، (עמ׳98).

(٣٦) שירה ענבר: על יונים וזאבים،שם،(עמ׳2).

(٣٧) דליה כרפל: סופר תחת השפעה،שם، (עמ׳4).

(٣٨) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٤١).

(٣٩) د.شاكر عبد الحميد: الذات والآر فهي عملية الإبداع، مجلة سطور، ديسمبر ١٩٩٦، (ص٦٣).

(٤٠) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם، (עמ׳42).

(٤١) ב.אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، hptt://stage.co.il/stories،5/1/2006.

(٤٢) د.أحمد حماد: أيهود بن عيزر، صورة العربي فهي الأدب العبري – فهي وطن الأشواق المتناقضة، ترجمة: د.أحمد حماد، دار الحمراء للنش، بيروت، ٢٠٠١، (ص١٨)– (مقدمة المترجم).

(٤٣)غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٣٩).

(٤٤) المرجع نفسه، (ص٢٤).

(٤٥) **כשהיונים מתייפחות, שם**.

(٤٦) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٢١).

(٤٧) **יעל פניני:יונים בטרפלגר, שם**.

(٤٨) **סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם**، (**עמ׳28**).

(٤٩) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٤٢).

(٥٠) **דבורה רם: יונים בטרפלגר– סמי מיכאל**،www.akatar.com./9_sefer.htm

(٥١) **יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، שם**.

(٥٢) **שירה ענבר: על יונים וזאבים،שם**،(**עמ׳3**).

(٥٣) **סמי מיכאל: יונים בטרפלגר،שם**، (**עמ׳43–44**).

(٥٤) غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مرجع سابق، (ص٣٦).

(٥٥) **שירה ענבר: על יונים וזאבים،שם**،(**עמ׳2**).

(٥٦) **יורם קניוק: בא בימים، רומן، הוצאת ידיעות אחרונות، ספרי חמד،תל אביב، 2012 (עמ،86)**.